الباب الثامن والستون: في الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن استحسنه

وما ذكرت إلا لأني كرهت أن يكون كتابي هذا بعد اشتماله على فنون الأدب، والتحف، والنوادر، والأمثال عاطلاً من هذه الصناعة التي هي مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة[1] الكئيب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذه بمجامع النفس.

فصل: في الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿يزيدُ في الخلقِ ما يشاءُ﴾[2] هو الصوت الحسن، وعن النبي ﷺ أنه قال: «أتدرون متى كان الحداء؟»[3] قالوا لا بأبينا أنت وأمنا يا رسول الله قال: «إن أباكم مضر خرج في طلب مال له فوجد غلاماً له قد تفرّقت إبله فضربه على يده بالعصا، فعدا الغلام في الوادي، وهو يصيح وايداه فسمعت الإبل صوته فعطفت عليه. فقال مضر: لو اشتقّ من الكلام مثل هذا، لكان كلاماً تجتمع عليه الإبل، فاشتق الحداء». وقال النبيّ ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه لما أعجبه حسن صوته: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» وقيل: إن داود عليه الصلاة والسلام كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يوماً في الأسبوع، وتجتمع عليه الخلق، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة، وكان له جاريتان موصوفتان بالقوّة والشدّة فكانتا تضبطان جسده ضبطاً شديداً خيفة أن تتخلع أوصاله مما كان ينتحب،[4] وكانب الوحوش والطير تجتمع لاستماع قراءته. قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه الصلاة والسلام يوم القيامة عند ساق القرش فيقول: يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم. وقال سلام الحادي للمنصور وكان يضرب المثل بحدائه: مُرْ يا أمير المؤمنين بأن يظمئوا إبلاً، ثم يوردوها الماء فإني آخذ في الحداء، فترتفع رؤوسها وتترك الشرب. وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق فيصفو له الدم، وتنمو له النفس، ويرتاح له القلب، وتهتزّ له الجوارح، وتخف له الحركات، ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء حتى يرقص ويطرب. وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقي من النطق لم يقدر اللسان على استخراجه، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع، لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس، وحنت إليه الروح، ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على

---

(١) مسلاة: سلواه.

(٢) سورة: فاطر، الآية: ١.

(٣) الحداء: غناء تقاد به الإبل.

(٤) ينتحب: يبكي بصوت.

أبدانهم ترنموا بالألحان، واستراحت إليها أنفسهم، وليس من أحد كائناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعجبه طنين رأسه. ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس في الأرض لذة تكتسب من مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا نكاح ولا صيد إلا وفيها معاياة[1] على البدن، وتعب على الجوارح ما خلا السماع فإنه لا معاياة فيه على البدن، ولا وتعب على الجوارح، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيري الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف، وصلة الأرحام والذبّ عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب، وقد يبكي الرجل بها على خطيئته، ويتذكر نعيم الملكوت، ويمثله في ضميره. ولأهل الرهبانية نغمات وألحان شجية يمجدون الله تعالى بها، ويبكون على خطاياهم ويتذكرون نعيم الآخرة. وكان أبو يوسف القاضي يحضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر نعيم الآخرة، وقد تحنّ القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم. وكان صاحب الفلاحات يقول إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء. قال الشاعر:

والطير قد يسوقه للموت إصغاؤه إلى حنين الصوت

وزعموا أن في البحر دواب، ربما زمرت أصواتاً مطربة، ولحوناً مستلذة يأخذ السامعين الغشي من حلاوتها فاعتنى بها وضعة الألحان، بأن شبهوا أغانيهم فلم يبلغوا، وربما يغشى على سامع الصوت الحسن للطافة وصوله إلى الدماغ، وممازجته للقلب، ألا ترى إلى الأم كيف تناغي ولدها فيقبل بسمعه على مناغاتها، ويتلهى عن البكاء، والإبل تزداد في نشاطها وقوّتها بالحداء، فترفع آذانها وتلتفت يمنة ويسرة وتتبختر في مشيتها. وزعموا أن السماكين بنواحي العراق يبنون في جوف الماء حفائر ثم يضربون عندها بأصوات شجية فيجتمع السمك في الحفائر فيصيدونه وقد نبهت على ذلك في باب ذكر البحار. وما فيها من العجائب. والراعي إذا رفع صوته ونفخ في يراعته تلقته الغنم بآذانها وجدَّت في رعيها والدابة تعاف الماء، فإذا سمعت الصفير بالغت في الشرب وليس شيء مما يستلذّ به أخف مؤنة من السماع. قال أفلاطون: من حزن فليسمع الأصوات الحسنة، فإن النفس إذا حزنت خمدت نارها، فإذا سمعت ما يطربها ويسرّها اشتعل منها ما خمدت، وما زالت ملوك فارس تلهي المحزون بالسماع، وتعلل به المريض وتشغله عن التفكر، ومنهم أخذت العرب حتى قال ابن غيلة الشيباني:

وسماع مسمعة يعلّلُنا حتى ننامَ تناومَ العجم

وحكي أن البعلبكي مؤذن المنصور رجّع[2] في أذانه ليلة وجارية تصبّ الماء على يد المنصور فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها، فقال له المنصور: خذ هذه الجارية فهي لك ولا تعد ترجع هذا الترجيع، وقال عبد الرحمٰن بن عبد اللّه بن أبي عمارة في قينة:

ألم ترَهَا لا أبعدَ الله دارَهَا إذا رجّعَتْ في صوتها كيفَ تصنعُ
تديرُ نظامَ القولِ ثم تردُّهُ إلى صلصلٍ من صوتها يترجَّعُ

(١) معاياة: تعب.
(٢) رجّع: فنون من الترديد.

وبعد، فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن لا سيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر:

ربَّ سمـــــاعٍ حســـــن سمعتُـــــه مـــــن حســـــن
مقـــــرِّبٍ مـــــن فـــــرح مبعـــــدٍ مـــــن حـــــزن
لا فـــــارقـــــاني أبـــــداً فـــــي صحـــــةٍ مـــــن بـــــدن

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغني بقول جرير:

قـلْ للجبـانِ إذا تـأخَّـرَ سـرجـه هـل أنتَ مـن شَـرَكِ المنيـة نـاجـي

إلاّ شاجن[1] شجعت نفسه وقوي قلبه، أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يوماً يغني بقول حاتم الطائي:

يـرى البخيـلُ سبيـلَ المـاءِ واحـدةً إن الجـوادَ يـرى فـي مـالـه سبـلا

إلا انبسطت أنامله ورشحت[2] أطرافه.

واختلف الناس في الغناء، فأجازه عامة اهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق، فمن حجة من أجازه ما روي عن النبي ﷺ قال لحسان: «شن الغطاريف على بني عبد مناف فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام». واحتجوا في إباحة الغناء واستحسانه بقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها: «أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت: نعم. قال: فبعثتم معها مَنْ يغني؟ قالت: لم نفعل. قال: أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم القول؟ ألا بعثتم معها مَنْ يقول»:

أتينـــــاكـــــم أتينـــــاكـــــم فحيُّـــــونـــــا نحيِّيكـــــم
ولـــــولا الحبـــــةُ السمـــــراءُ لـــــم نحلـــــلْ بـــــواديكـــــم

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرّم، ولا يكره السّماع عند العرس، والوليمة، والعقيقة وغيرها فإن فيه تحريكاً لزيادة سرور مباح، أو مندوب ويدل عليه ما روي من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم النبي ﷺ حيث قلن:

طلـــــع البـــــدرُ علينـــــا مـــــن ثنيَّـــــات الـــــوداعِ
وجـــــب الشكـــــرُ علينـــــا مـــــا دعـــــا لله داعِ
أيهـــــا المبعـــــوثُ فينـــــا جئـــــتَ بـــــالأمـــــرِ المطـــــاعِ

ويدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة[3] يلعبون في المسجد الحرام حتى أكون أنا التي أسأمه. ويدل عليه أيضاً ما روي في الصحيحين من حديث عقيل من الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى يدففان

(١) شاجن: حزين متأثر.
(٢) رشحت: سال منها ما يسال.
(٣) الحبشة: الأولاد الأحباش.

ويضربانه، والنبي ﷺ متغشٍ بثوبه فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبيّ ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد» وعن قرة بن خالد بن عبد اللّه بن يحيى قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه للنابغة الجعدي: أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من هناتك. فأسمعه كلمة. فقال له وإنك لقائلها؟ قال نعم قال طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب. وعن عبد اللّه بن عوف قال أتيت باب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فسمعته يغني بالركابية يقول:

فكيف ثوائي بالمدينة بعدما ... قضى وطراً[1] منها جميل بن معمر

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر، قال: فلما استأذنت عليه قال لي: أسمعت ما قلت؟ قلت نعم. قال: إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في بيوتهم. وقد أجازوا تحسين الصوت في القراءة والأذان، فإن كانت الألحان مكروهة، فالقراءة والأذان أحق بالتنزيه عنها، وإن كانت غير مكروهة فالشعر أحوج إليها لأقامة الوزن. وما جعلت العرب الشعر موزوناً إلا لمد الصوت، والدندنة، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبز المنثور. ومن حجة من كره الغناء أنه قال: إنه ينفر القلوب، ويستفز العقول، ويبعث على اللهو، ويحض على الطرب، وهذا باطل في أصله وتأولوا في ذلك قوله تعالى: ﴿ومِنَ الناس مَنْ يشتري لَهْو الحديثِ ليضلَّ عن سبيلِ الله بغير علمٍ ويتَّخذُها هزواً﴾[2] وأخطأ من أوّل هذا التأويل إنما نزلت هذه الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير، والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن، ويقولون إنها أفضل منه، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزواً. وقال رجل للحسن البصري: ما تقول في الغناء يا أبا سعيد؟ فقال نعم العون على طاعة الله تعالى، يصل الرجل به رحمه، ويواسي به صديقه، قال ليس عن هذا اسألك، قال وعمّ سألتني؟ قال أن يغني الرجل، قال وكيف يغني فجعل الرجل يلوي شدقيه ويفتح منخريه، فقال الحسن والله يا ابن أخي ما ظننت أن عاقلاً يفعل بنفسه هذا أبداً، فلم ينكر الحسن عليه إلا تشويه وجهه وتعويج فمه. وسمع ابن المبارك سكراناً يغني هذا البيت:

أذلَّني الهوى فأنَا الذليلُ ... وليسَ إلى الذي أهوى سبيلُ

قال: فأخرج دواة وقرطاساً وكتب البيت. فقيل له: أتكتب بيت شعر سمعته من رجل سكران؟ فقال: أما سمعتم المثل: رب جوهرة في مزبلة؟ وكان لأبي حنيفة جار من الكيالين مغرم بالشراب وكان يغني على شرابه بقول العرجي:

أضاعوني وأيّ فتى أضاعُوا ... ليومِ كريهةٍ وسدادِ ثَغْرِ

قالوا: فأخذه العسس ليلة وحبسه، ففقد أبو حنيفة صوته، واستوحش له. فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيال؟ قالوا: أخذه العسس وهو في الحبس، فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى عيسى بن موسى فاستأذن عليه فأسرع إذنه، وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتي أبواب الملوك، فأقبل عليه عيسى بن موسى وسأله عما جاء بسببه. فقال: أصلح الله الأمير: إن لي جاراً من الكيالين أخذه عسس الأمير ليلة كذا، فوقع في حبسه. فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من في الحبس إكراماً لأبي حنيفة. فأقبل الكيال على أبي حنيفة يتشكر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له: هل أضعناك يا فتى؟

---

(١) وطراً: غاية.

(٢) سورة: لقمان، الآية: ٦.

يعرض له بشعره الذي ينشده. قال: لا والله ولكنك بررت[١] وحفظت. وكان عروة بن أدية ثقة في الحديث روى عنه مالك بن أنس، وكان شاعراً مجيداً لبقاً غزلاً وكان يصوغ ألحان الغناء على شعره ويلحنها للمغنين. قيل: إنه وقفت عليه امرأة يوماً وحوله التلامذة فقالت له: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح وأنت تقول:

إذا وجدتُ أوارَ[٢] الحبِّ في كبدي ... عمدتُ نحو سقاءِ القومِ أبتردُ
هَبْني بردتُ ببردِ الماءِ ظاهره ... فمَنْ لنارٍ على الأحشاءَ تَتَّقِدُ

وكان عبد الملك الملقب بالقس عند أهل مكة، بمنزلة عطاء بن أبي رباح في العبادة. قيل إنه مر يوماً بسلامة وهي تغني فأقام يسمع غناءها فرآه مولاها فقال له: هل لك أن تدخل وتسمع؟ فأبى، فلم يزل به حتى دخل فغنته فأعجبته ولم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها، فلما شعرت بلحظه إياها غنته:

ربّ رسولين لنا بلغا ... رسالةً من قبلِ أن نبرحا
الطرفُ للطرفِ بعثناهما ... فقضَيَا حاجاً وما صرَّحا

قال: فأغمي عليه وكاد يهلك فقالت له: إني والله أحبك قال وأنا والله أحبك. قالت وأحب أن أضع فمي على فمك. قال وأنا والله كذلك قالت فما يمنعك من ذلك؟ قال أخشى أن تكون صداقة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة. أما سمعت قوله تعالى: ﴿الأخلاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين﴾[٣]، ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها وأنشأ يقول:

قد كنت أعذلُ في السفاهةِ أهلَهَا ... فاعجبْ لما تأتي به الأيامُ
فاليومَ أعذرهم وأعلم أنما ... سُبُلُ الضلالةِ والهدى أقسامُ

وقدم عبد اللَّه بن جعفر على معاوية بالشام فأنزله في دار عياله، وأظهر من إكرامه ما يستحقه فغاظ ذلك فاختة بنت قرظة زوج معاوية فسمعت ذات ليلة غناء عبد اللَّه بن جعفر فجاءت إلى معاوية فقالت: هلم فاسمع ما في منزل الذي جعلته من لحمك ودمك وأنزلته بين حرمك، فجاء معاوية فسمع شيئاً حركه وأطربه، فقال: والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال أن تخرّ له. ثم انصرف فلما كان في آخر الليل وسمع معاوية قراءة عبد اللَّه بن جعفر وهو قائم يصلي فنبه فاختة وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعتني، هؤلاء قومي ملوك بالنهار، ورهبان بالليل، ثم إن معاوية أرق ذاب ليلة فقال لخادمه اذهب فانظر من عند عبد اللَّه بن جعفر وأخبره أني قادم عليه، فذهب وأخبره فأقام عبد اللَّه كل من كان عنده فلما جاء معاوية لم ير في المجلس غير عبد اللَّه فقال: مجلس مَنْ هذا؟ قال عبد اللَّه هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: مره فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد، قال مجلس من هذا؟ قال مجلس رجل يداوي الآذان يا أمير المؤمنين. قال إن أذني عليلة فمره أن يرجع إلى مجلسه، وكان مجلس بديح المغني، فأمره عبد اللَّه بن جعفر فرجع إلى موضعه. فقال له معاوية: داو أذني من علتها، فتناول العود وغنى وقال[٤]:

---

(١) بررت: كنت باراً ووفياً.
(٢) أوار: لظى.
(٣) سورة: الزخرف، الآية: ٦٧.
(٤) المحفوظ في رواية بيت الأعشى: «ودع هريرة. . .».

ودِّع سعـادَ فـإن الـركـبَ مـرتحـلُ وهـل تطيـقُ وداعـاً أيهـا الـرجـلُ

قال: فحرّك عبد اللّه بن جعفر رأسه. فقال له معاوية: لم حركت رأسك يا ابن جعفر؟ قال: أريحية أجدها يا أمير المؤمنين، لو لقيت لأبليت، ولو سئلت لأعطيت، وكان معاوية قد خضب. قال: فقال ابن جعفر لبديح: هات غير هذا، وكان عند معاوية جارية أعزّ جواريه عليه، وكانت تتولى خضابه فغنى بديح وقال:

أليـسَ عنـدك شكـرٌ للتـي جعلَـتْ ما ابيضَّ من قادماتِ الرأسِ كالحممِ[1]
وجـدَّدتْ منـك مـا قـد كـان أخلَقَـهُ صـرفُ الـزمـانِ وطـولُ الـدهـرِ والقـدمِ

فطرب معاوية طرباً شديداً، وجعل يحرّك رجله، فقال له ابن جعفر: يا أمير المؤمنين إنك سألتني عن تحريك رأسي فأجبتك وأخبرتك، وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال: كل كريم طروب. ثم قام وقال: لا يبرح أحد منكم حتى يأتي له إذني، ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار، ومائة ثوب من خاصة كسوته، وإلى كل رجل منهم بألف دينار، وعشرة أثواب.

وحدث ابن الكلبي والهيثم بن عدي قالا: بينما عبد اللّه بن جعفر في بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء فأصغى إليه فإذا صوت رقيق لقينة تغني وتقول:

قُـلْ للكـرام ببـابنـا يلجـوا مـا فـي التصـابي[2] علـى الفتـى حـرجُ

فنزل عبد اللّه عن دابته، ودخل على القوم بلا إذن فلما رأوه قاموا إجلالاً له ورفعوا مجلسه فأقبل عليه صاحب المجلس وقال: يا ابن عمّ رسول الله ﷺ أتدخل مجلسنا بلا إذن، وليس هذا من شأنك؟ فقال: عبد اللّه: لم أدخل إلا بإذن. فقال: ومن أذن لك؟ قال: قينتك هذه سمعتها تقول: «قل للكرام ببابنا يلجوا»، فولجنا فإن كنا كراماً فقد أذن لنا، وإن كنا لئاماً خرجنا مذمومين. فقبل صاحب المنزل يده، وقال: جعلت فداك والله ما أنت إلا من أكرم الناس. فبعث عبد اللّه إلى جارية من جواريه فحضرت، ودعا بثياب وطيب فكسا القوم، وطيبهم، ووهب الجارية لصاحب المنزل وقال هذه أحذق بالغناء من جاريتك. وسمع سليمان بن عبد الملك مغنياً في عسكره فقال اطلبوه فجاءوا به. فقال: أعد عليّ ما غنيت به. فغنى واحتفل، وكان سليمان أغير الناس، فقال لأصحابه: كأنها والله جرجرة الفحل في الشوك، وما أظنّ أنثى تسمع هذا إلا صبت إليه، ثم أمر به فخصي.

أصل الغناء ومعدنه: قال أبو المنذر هشام: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب، والسناد، والهزج، فأما النصب فغناء الفتيان والركبان، وأما السناد فالثقيل الترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج فالخفيف كله، وهو الذي يستفز القلوب، ويهيج الحليم. وقيل كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى فاشياً ظاهراً، وهي المدينة والطائف وخيبر، وفدك، ووادي القرى، ودومة الجندل، واليمامة وهذه القرى مجامع أسواق العرب. ويقال إن أوّل من صنع العود، لامك بن قاين بن آدم وبكى به على ولده. ويقال إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى، وهو كتاب اللحون الثمانية والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) الحمم: أي جعلته أسود.
(٢) التصابي: العبث كالصبيان.